بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعله مصدر عزتنا وقوتنا وصلاحنا وصلاح أمورنا في الدنيا والآخرة، وامتن علينا ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأنام، وأرسله رحمة للعالمين هادياً ومبشراً ونذيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] أحمده تعالى وأشكره حيث أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، وأستعينه وأستهديه وأتوب إليه وأستغفره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمرنا باتباع صراطه المستقيم، وحذرنا من طرق المغضوب عليهم، والضالين وغيرهم من المنحرفين عن الهدى المستقيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفوته من خلقه، بلغ البلاغ المبين، وترك الناس على المنهج القويم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين والسائرين على نهجهم إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

لم تستأثر مصر وحدها بريادة بواكير النهضة الفكرية في مطلع القرن العشرين، بل شاركتها بعض أخواتها من البلدان العربية، بروادها النابهين من رجال الفكر والأدب والإصلاح.

وكانت بلاد الشام موطنًا لنهضة فكرية وليدة تعمل على إصلاح المجتمع وتخليصه مما ران عليه من جهل وتخلف، وتسعى إلى رفعة الأدب العربي، واستعادة ما كان عليه من قوة وازدهار في عصوره الزاهية. وحمل لواء هذه النهضة نفر كرام من زعماء الإصلاح في الشام، يتقدمهم الشيخ طاهر الجزائري، وتلميذه النابه محمد كرد علي الذي تابع مسيرة شيخه بخطا واسعة، يدعو إلى الإصلاح والتجديد، ويحارب أهل الزيغ والأهواء، وينافح عن العروبة والإسلام، ويقود الحركة الفكرية في سوريا في ثقة

وثبات. وظل حتى وفاته في حركة دائبة وعمل متصل، لا يعرف الهدوء ولا الراحة، ولا ينقطع عن الكتابة والتأليف.

ويُعَدُّ كتاب «الإسلام والحضارة العربية» من أنفس كتب الأستاذ رحمه الله، وسبب تأليفه أنه لما قرر المجمع العلمي العربي بدمشق سفر الأستاذ محمد كرد علي لتمثيله في مؤتمر المشرقيات الذي عقد في هولندا في صيف سنة ١٩٣١م رغب إليه أعضاؤه المفكرون أن يلقي فيه جملة محاضرات، يعرض فيها لما لا يزال يسري على ألسنة بعض مؤلفي الغرب، ولا سيما علماء المشرقيات، من أمور نابية عن حد التحقيق والنصفة، كلما ذكروا الإسلام وأهله، والعرب ومدينتهم.

واعتمد محمد كُرد علي في كتابه «الإسلام والحضارة العربية» على جملة من الاقتباسات «الاستشراقية» عن علماء الغرب ليرد بها على كل من يحاول الانتقاص أو النيل من الإسلام وحضارته، من بينها ما نقله عن غوستاف لوبون، المؤرخ الفرنسي الشهير، صاحب كتابي «حضارة العرب»، و«سيكولوجية الجماهير»، والذي انتصر كثيرًا للعرب والمسلمين بقوله: «وذلك أنه كان للمدينة الإسلامية تأثير عظيم في العالم، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب... وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الإمبراطورية الرومانية، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوروبا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، وهذا ما كانت تجهله، وعلى ذلك كان العرب ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة».

هكذا تتوالى اقتباسات كُرد علي بطول الجزء الأول من كتابه الذي يعتبر بحق «بانوراما» لعرض آراء المستشرقين في الحضارة الإسلامية، حتى أنه اقتبس من أرنست رينان، المستشرق الفرنسي، وزميله إلينا آلبرسيم، ما دافعا به عن العرب ضد الهجمة العنصرية الغربية التي اتهمتهم بحرق مكتبة الإسكندرية أثناء دخولهم مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب... «ولم تُحرق مكتبة الإسكندرية التي قال بعضهم إنه كان فيها نحو ٧٠٠ ألف مجلد على يد الإمام عمر ولا بأمره، فإنّ هذه الدعوة من الأغلاط التاريخية العظيمة، إذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عندما فتحت العرب مدينة الإسكندرية سنة ٦٤٠ م».

يتطرق كرد علي إلى التاريخ متحدثاً عن الشعوبية في الماضي ليوصل بها الحاضر، ومن السهل طبعًا أن نتبين مغزاه من ذلك، إذ أن الشعوبية من وجهة نظره هي «لفظ يطلق على كل من ناهضوا العرب في القديم والحديث، وفي الشرق والغرب، وقاموا ينتقصون من قدر حضارتهم وتاريخهم»، وتعود اقتباسات كرد علي لينفي عن العرب اضطهادهم للأجناس والشعوب الأخرى، وكأنه يطالب المعاملة بالمثل، فينقل عن ليوتي، الأديب الفرنسي، قوله: «وإذا كان فريق من ذوي الأغراض الملتوية يزعم أن الإسلام يبعث على التدمير والفوضى والتعصب، فإني بصفتي رجلاً قضيت بين المسلمين مدة من الزمان في الشرق والغرب ولم أكتفِ بما قرأته عن الإسلام في الكتب، أقول إن تلك المزاعم لا نصيب لها من الصحة».

ومثلما ربط تاريخ الشعوبية بحركة الحاضر، ينجح كرد علي في العودة مجددًا إلى الماضي، في حركة «بوندولية» ليس لها غرض إلا حشد أكبر عدد ممكن من الشواهد الدالة على عظمة الحضارة الإسلامية وتسامحها في مقابل الانغلاق العرقي والعنصرية القومية، فينقل عن مصادر التاريخ الإسلامي ما ذكرته من حسن معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل والنحل، وأبرزها سلوك الخليفة عمر بن الخطاب مع عجائز اليهود وأمره بإعفائهم من دفع الجزية، فضلاً عن التراجم التي وضعها ابن أصيبعة في كتابه «طبقات الأطباء» وقيامه بذكر المخالفين وجهودهم العلمية من دون تعصب، ومثله فعل القفطي في أخبار الحكماء، ليخلص كرد علي من كل ذلك الى القول: «هكذا عامل المسلمون أهل ذمتهم وهكذا عاملهم الخلفاء من الراشدين والأمويين والعباسيين»، بل هناك من الخلفاء ممن «كانوا يبيحون لأبناء الذمة بأسرارهم، ويطلعونهم على خويصة أنفسهم، ويوسدون إليهم مهمات أمورهم، ويأتمنونهم على حركاتهم وحرمهم... وهل عاهدت مثل هذه المسامحة في بعض ممالك الغرب إلا بعد حروب طويلة وثورات مستديمة؟».

هجوم كرد علي على النزعة الشعوبية لن يقف عند هذا الحد، بل سيمتد إلى تفنيد مزاعم الشعوبيين حول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والرسالة الإسلامية، من دون أن يحيد عن المنهج الذي اتخذه منذ البداية، أقصد طريقته «وشهد شاهد من أهلها»، ويتجلى ذلك في الاقتباس الذي نقله عن برنارد شو، أكبر كتّاب الإنكليز، عندما قال:

«لا يمضي ١٠٠ عام حتى تكون أوروبا، ولا سيما انكلترا، قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة العربية».

ويبدو كرد علي متسقًا مع قناعاته الرافضة للهجوم على الأديان أو التقليل من شأن أتباعها، ويرى أن «الأديان في جوهرها واحدة تأمر بالخير، وتدعو إلى مكارم الأخلاق، وتدفع الناس بعضهم عن بعض في هذه الحياة، ليقوم نظام اجتماعهم على ما ينزع من صدورهم الأحقاد والتعادي، وحب القتل والسلب وهتك العرض، وتشعر قلوبهم بالرحمة والعطف على الأسير العاني، والشيخ الفاني، واليتيم، والبائس...وتذكرهم أن لهم ميعاداً ثانياً يُثاب فيه المؤمن المحسن، ويُعاقب فيه من يجترح شيئاً من السيئات». على كل حال يملك الإسلام منظومة أخلاقية تمكنه من أن يجد معنىً مشتركًا مع أرباب الملل الأخرى، ولعل بفضل هذه الأخلاق فإنّ الخليفة عمر بن الخطاب تدركه الصلاة في كنيسة القيامة في القدس فيقول لبطركها «صفرونيوس» أريد أن أصلي، فيقول له: صلِ يا أمير المؤمنين موضعك، فيأبى عمر، ثمّ يخرجه إلى كنيسة قسطنطين فيأبى، ويصلي وحده على بابها، ويقول للبطرك: إن سبب امتناعه من الصلاة في الكنيسة لئلا تخرج من يده (يد البطرك) ويأخذها المسلمون منه ويقولون: ها هنا صلى عمر، ويكتب عمر سجلاً للبطرك ألا يصلي المسلمون على الدرج (سلالم الكنيسة، بعد أن منع الصلاة داخلها) إلا فرادى، ولا تُجمع فيها صلاة، ولا يُؤذن عليها، ويعلق كرد علي على هذه الواقعة بقوله: «إنّ خليفة يعمل هذا، وهو في قمة عز الإسلام، جدير بإعجاب العدو والصديق».

تسامح المسلمين مع مخالفيهم في العقيدة سيكون له أثر إيجابي آخر، وفق ما رصده كرد علي في كتابه «الإسلام والحضارة العربية»، إذ أنّ عدم فرض المسلمين دينهم بالقوة على الشعوب المغلوبة كان السبب وراء عدم هوجة هذه الشعوب ضد الفاتحين الجدد، بخاصة أن الخلفاء الأوائل أدركوا بعبقريتهم السياسية أن الأديان لا تُفرض على الناس بالقوة، «وما عرفت الشعوب فاتحًا بهذا القدر من المسامحة، ولا دينًا حوى في مطاويه هذه الرقة واللطف»، وكان من أثر ذلك أن النصارى والمجوس كلما رأوا تساهل العرب ومحاسنتهم زادوا ثقةً بهم، وإقبالاً على دعوتهم، ورجوا

لأيامهم طول البقاء، لأنهم كانوا يتركون لهم حريتهم في إقامة شعائرهم، ويرعون عهودهم، ويحافظون على بِيعهم وكنائسهم.

نجح كرد علي في توضيح أثر العرب في الثقافة العالمية، ونقل اقتباسًا عن أحد علماء الغرب قال فيه: «إنه لو حُذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب قرونًا عدة في الغرب»، وعقد الرجل فصلاً ممتعًا عن أثر اللغة كـ «قوة ناعمة» ووسيلة ناجحة في التواصل الحضاري، وراح يعدد من مزايا اللغة العربية ومرونتها وقدرتها على استيعاب الأمم الأعجمية التي على رغم أنها لم تكن عربية الأصل، إلا أنها صارت بعد ذلك عربية الثقافة، وأرجع ذلك إلى ما تمتع به العرب من قوة في هذا الوقت، ما دعا الأمم المغلوبة إلى محاكاة الفاتحين، وهي النظرية نفسها التي سيعمقها بعد ذلك سوردل، عالم الاجتماع الفرنسي، عن علاقة التابع بمتبوعه، ومحاولة تقليده ومحاكاته نتيجة الإحساس تجاهه بالنقص، وهي العقدة التي سترتد لتصيب الشعوب العربية بعد أفول مجد حضارتهم، وتمكُن الاستعمار منهم في القرن التاسع عشر.

تأثير العرب في الغرب من الناحية العلمية شغل جزءًا من كتاب كرد علي، واتبع فيه أسلوبه نفسه «وشهد شاهد»، وفي هذا راح ينقل عن «درابر» قوله: «من موجب الأسف أن الأدب الأوروبي حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحو المسلمين، فقد حان الوقت الذي ينبغي لنا أن نعرفهم»، وفي قائمة طويلة سيعدد كرد علي إنجازات العلماء المسلمين في شتى ضروب المعرفة، من بينهم الإدريسي الذي قال عنه غوته، الشاعر الألماني الكبير: «إنه كان أستاذ الجغرافيا الذي علّم أوروبا هذا العلم، لا بطليموس»، وسيذكر كرد علي محاولة عباس بن فرناس الطيران، ورسالة ابن خاتمة في الوباء، واكتشاف أبو بكر القدسي آلة الطباعة قبل غوتنبرغ الألماني، وفضل العرب على أوروبا في تعريفها بصناعة الورق، وفق ما يؤكده كرد علي الذي يكرر النقل عن غوته قوله: «وللعرب في باب الاختراعات شيء لا بأس به بالنسبة الى عصورهم»، وقول داربر: «ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا (أي: لديهم نزعة تجريبية لا تكتفي بالمجردات)، وقد حسبوا الهندسة، وعينوا الكسوف والخسوف، ولهم باب عظيم في قضايا الهندسة وحساب الجبر والمثلثات، ورسم خرائط النجوم، واختراع الآلات الفلكية، وأنشأوا

العلوم الكيميائية مثل الكبرتيك وحامض الفضة، وهم أول من نشر تركيب الأدوية، وأصلحوا في علم البصريات».

في القسم الثاني سينتقل كرد علي إلى الإسلام من الداخل، وسيتفرغ للحديث عن الإنجاز المعرفي الذي قام به علماء الإسلام في مجالات المعرفة الدينية، ثم ينتقل إلى عرض «بانورامي» لأساليب الحكم والإدارة في الإسلام، ومدى تأثير الفرس في بناء الهيكل الإداري للدولة العباسية بالذات.

من الواضح أنّ محمد كرد علي قسّم كتابه تقسيمًا واعيًا، يعكس همّه الفكري الذي انصب على محاربة أعداء الإسلام، سواء من الداخل، أم من الخارج، كما رأينا في هذه العجالة، وتركزت جهوده على إبراز العناصر الحضارية للأمة الإسلامية باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من سياق الحضارة الإنسانية في شكل عام.

وقد حاولنا جاهدين إخراج هذا الكتاب الرائع في أبهى صورة، وندعو من الله التوفيق.

وصلَّى الله وسلم على سيّد البلغاء من الناس مُحمّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يَوْم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.